الفصل التاسع عشر

زكريا إبراهيم

وفلسفة «المشكلات الإنسانية»

الفصل التاسع عشر

زكريا إبراهيم
وفلسفة «المشكلات الإنسانية»

أولاً: مكانته الفكرية

لا شك أن د. زكريا إبراهيم (1924 - 1976م) يُعد واحدًا من ألمع أساتذة الفلسفة المصريين والعرب؛ فقد كان من أكثرهم قدرة على توصيل فكرته الفلسفية بأوضح أسلوب وأقوى بيان، كما كان من أغزرهم إنتاجًا، وتميز إنتاجه الفكري رغم غزارته بالأصالة والابتكار فقد كان له فضل نشر الوعي بالفلسفة وبأهم مشكلاتها على جمهور المثقفين في أرجاء العالم العربي بما كتبه في سلسلة «مشكلات فلسفية» وبما كتبه في تاريخ الفلسفةوخاصة في الفلسفة المعاصرة عامة وفي فلسفة الفن على وجه الخصوص.

ثانياً: حياته ونشاطه العلمي

ولد زكريا السيد إبراهيم بقطر في الرابع والعشرين من شهر يوليو 1924م لأب يعمل بوزارة الداخلية المصرية، وقد عاش معظم حياته في حي مصر الجديدة أرقى أحياء القاهرة الحديثة. تلقى تعليمه الأولى الذي أهله للالتحاق بالجامعة في كلية الآداب بالجامعة المصرية، وقد التحق بقسم الدراسات الفلسفية والنفسية وتتلمذ فيه على طائفة متميزة من الأساتذة المصريين كمنصور فهمي ومصطفى عبدالرازق وأحمد أمين و إبراهيم مدكور، وعلى يد طائفةمن المستشرقين وخاصة من الفرنسيين الذين كانوا يدرسون كمنتدبين بالجامعة المصرية. أنهى دراسته الجامعية بتفوق حيث حصل على الليسانس الممتازة بمرتبة الشرف الأولى عام 1944م.

واصل بعد ذلك دراساته العليا فحصل على ماجستير الفلسفة من نفس الكلية والجامعة بتقدير ممتاز عام 1947م وكان موضوع بحثه «فلسفة الفعل عند موريس بلوندل»، وواتته الفرصة للسفر إلى فرنسا لاستكمال دراساته العليا، فسافر عضو بعثة إلى باريس عام 1949م، والتحق بجامعة السوربون وقضى هناك خمس سنوات حصل خلالها على دكتوراة الدولة في الفلسفة المعاصرة عام 1954من وكان موضوع الرسالة الأولى «الميتافيزيقا عند هوكنج»، وكان موضوع الرسالة الثانية «المسألة الدينية عند وايتهد».

وعاد بعد ذلك ليتسلم عمله في كليته وجامعته في السابع من شهر مارس عام 1954م. وقد عين مدرسًا للفلسفة في الخامس عشر من أغسطس من نفس العام. وواصل عمله الأكاديمي بجد ونشاط ملحوظين، فتدرج في الوظائف حيث حصل على درجةأستاذ مساعد في الخامس من شهر أغسطس عام 1962م، ثم حصل على درجة أستاذ كرسي الأخلاق في الحادي عشر من شهر أبريل عام 1970م.

سافر زكريا إبراهيم خلال عمله الأكاديمي إلى عدة دول عربية وأجنبية، فقد كان دائم السفر في الإجازات الصيفية إلى فرنسا وأسبانيا. وسافر للعمل ببعض الجامعات العربية؛ فعمل بجامعة القاهرة - فرع الخرطوم بالسودان عدة سنوات بين عامي 1956م و1963م، كما أعير للعمل بالجامعة الأردنية بعمان بين عامي 1966م و1969م، وأعير كذلك إلى جامعة قطر عامي 1973 - 1974م، وجددت إعارته للعمل بالجامعات العربية لكن هذه المرة إلى جامعة الملك محمد الخامس بالرباط بالمغرب التي ظل بها حتى عام 1976م.

وقد شهد له تلاميذه في مصر وفي هذه الجامعات العربية التي عمل بها بالكفاءة والقدرة غير المحدودة على اكسابهم مهارة التفكير الفلسفي وجعل الأفكار الفلسفية حية في نفوسهم وعقولهم وكان شديد التأثير في تلاميذه لما تميز به من تواضع جم ومن حب لا محدود لتلاميذه لدرجة أن كان يهدي إليهم مؤلفاته المطبوعة من شدة اعتزازه بهم.

شارك زكريا إبراهيم في عضوية العديد من الهيئات العلمية في مصر والعالم العربي، كما كان دائم الكتابة والمشاركة بالمقالات في مختلف القضايا الفكرية في المجلات المصرية وخاصة «تراث الإنسانية» و«الفكر المعاصر».

ثالثًا: مؤلفاته ومترجماته

تميز الإنتاج الفكري لزكريا إبراهيم بالغزارة والتنوع؛ فقد بلغت قائمة مؤلفاته كما صنفها بنفسه أكثر من ثلاثين كتابًا بين التأليف والترجمة، وقد قسمها بنفسه إلى ثمان مجموعات؛ أولها: الرسائل الجامعية الثلاث: «فلسفة الفعل عند موريس بلوندل» بالقاهرة عام 1949م، و«ميتافيزيقا هوكنج» و«المشكلة الدينية عند وايتهد» ونشرتا بباريس عام 1954م.

وثانيهما: مجموعة «مشكلات فلسفية» التي تضمنت معالجة ثمان مشكلات من أهم ما تعرض له الفلاسفة عبر تاريخ الفلسفة، وهي؛ مشكلة الحرية التي طبعت ثلاث طبعات بمكتبة مصر حتى عام 1972م، ومشكلة الإنسان وطبعت طبعتان حتى عام 1967م بنفس المكتبة، ومشكلة الفن وطبع طبعتان بنفس المكتبة حتى نفس العام، ومشكلة الفلسفة وطبع ثلاث طبعات حتى عام 1971م، ومشكلة الحب وطبع طبعتان حتى عام 1970م بنفس المكتبة، والمشكلة الخلقية عام 1969م، ومشكلة الحياة عام 1971م، ومشكلة البنية عام 1975م عن نفس المكتبة.

أما المجموعة الثالثة، فهي المجموعة التي أطلق عليها «عبقريات فلسفية»، وصدر منها «كانت أو الفلسفة النقدية» الذي صدرت طبعته الأولى عام 1963م عن مكتبة مصر أيضًا وأعيد طبعه للمرة الثانية بدون تاريخ، و«هيجل أو المثالية المطلقة» الذي صدر الجزء الأول منه عن نفس المكتبة عام 1971م، وقد أعد في نفس السلسلة أيضًا كتابًا عن «ماركس أو المادية الجدلية» لكنه لم يظهر.

أما المجموعة الرابعة فهي عبارة عن «دراسات فلسفية متفرقة»؛ وضمنها سبع مؤلفات هي «دراسات في الفلسفة المعاصرة» وصدرت طبعته الأولى عن مكتبة مصر عام 1968م، وكتاب عن «برجسون» الذي صدر ضمن سلسلة «نوابع الفكر الغربي» التي كانت تصدرها دار المعارف وقد طبع طبعتين حتى عام 1967م، وفي الدراسات النقدية كتب كتابين عن الفلسفة الوجودية هما «تأملات وجودية» وقد صدر عن مكتبة الآداب ببيروت عام 1963م، و«الفلسفة الوجودية» وصدر عن دار المعارف عام 1957م. كما يأتي في هذه المجموعات ثلاث مؤلفات في مجال الأخلاق هي: «مبادئ الفلسفة والأخلاق» وقد صدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف

بمصر عام 1972م، و«الثقافة الاجتماعية» الذي كتب فيه جزءًا عن المنطق، وقد صدر عن زارة التربية والتعليم عـام 1959م طبع ثلاث مرات حتى عام 1972م، و«الأخلاق والمجتمع» الذي صدر ضمن سلسلة المكتبة الثقافية عن مؤسسة التأليف والترجمة بالقاهرة عام 1966م.

أما المجموعة الخامسـة فهي عبارة عن «دراسات جمالية»، صدر منها كتاب «فلسفة الفن في الفكـر المعاصر» عـن مكتبة مصر عام 1966م، وقـد أعد للطبع كتابًا آخـر بعنوان «الفن والفنان» وفي مجال الدراسـات الإسـلامية كتب كتابين ضمن المجموعة السادسة من مؤلفاته؛ أحدهما عن «أبو حيان التوحيدي» الذي صدر ضمن سلسـلة أعلام الفكر العربي عن مؤسسة التأليـف والترجمـة بالقاهرة عام 1964م. والثاني عن «ابن حـزم الأندلسي» وصدر ضمن نفس السلسلة عام 1966م.

وفي إطار المجموعة السـابعة كتب أربع مؤلفات هي عبارة عن «دراسـات سـيكولوجية واجتماعيـة»، هي: «سـيكولوجية الفكاهة والضحك» وصدر عـن مكتبة مصر عام 1958م، و«الجريمة والمجتمع» وصدر عن مكتبة النهضة المصرية عام 1959م، و«سـيكولوجية المرأة» وصدر عن مكتبة مصر عام 1957م، و«الزواج والاسـتقرار النفسي» وصدر عن نفس المكتبة عام 1957م أيضًا.

أمـا المجموعة الثامنة، فقد ضمنها كتبـه المترجمة؛ وقد نقل في إطارها إلى العربية اثنين من النصـوص الفلسـفية الهامة، همـا «الفن خبرة» للفيلسـوف الأمريكي جون ديـوي وصدر عن مكتبة النهضة العربية بالاشـتراك مع مؤسسة فرانكلين عام 1965م، وكتاب «الزمان والأزل» لولتر ستيس وصدر عن المؤسسة الوطنية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين أيضًا عام 1967م.

ولعل من المناسب أن نعرض ملخصًا سريعًا لبعض ما ورد في هذه المؤلفات من المجموعات الخمس الرئيسية.

1) **مشكلة الحرية:**

وهو يدرس في هذا الكتاب أول المشكلات الفلسفية التي اهتم بدراستها - مشكلة الحرية. وقد درسـها عبر ثلاث أبواب وتسـعة فصول؛ درس في الباب الأول الحرية بين الاثبات والنفي وتحدث فيها عن معنى الحرية ومعنى الضرورة ثم تحدث عن من الضرورة إلى الحرية، وفي الثاني

تناول ضروب الحتمية المختلفة (الحتمية العلمية - الحتمية السيكولوجية - الحتمية اللاهوتية)، وفي الثالث يتحدث عن حرية الإرادة و إرادة الحرية و يتناول فيه بالدراسة الفكر والإرادة، والحرية والوجود الإنساني ويختتم بمقارنة بين الحرية والتحرر. وقد عالج هذه القضايا في أكثر من ثلاثمائة وثمانين صفحة.

2) **مشكلة الفن:**

وقد عرض فيه لمشكلة الفن في أكثر من مائتي وثمانين صفحة عبر ثمانية فصول مستخدمًا فيها منهجًا فينومينولوجيا؛ وقد بدأ بفصل أوضح فيه أصل كلمة فن وتعريفه منذ العصر اليوناني حتى الآن وانتهى إلى أن الفن هو مجموعة الضرورات التي تفرض نفسها على الفنان وأنه القدرة الإبداعية لإيجاد مخلوقات جديدة وأن التجربة الاستطيقية تشمل التذوق كما تشمل في ذات الوقت الإبداع، ثم تناول في الفصل الثاني العمل الفني: بناؤه وعناصره، وفي الفصل الثالث ميز بين الطبيعة والفن، ثم ميز في الفصل الرابع بين الفن والصناعة. وتحدث في الفصل الخامس عن الفن والمجتمع، وفي الفصل السادس عن مشكلة الإبداع الفني، والفصل السابع عن الفن والحياة وفي الثامن عن التذوق الفني واختتم الكتاب بخاتمة تناول فيها الموضوع الجمالي بوصفه ليس موضوعًا طبيعيًا أو نفسيًا أو اجتماعيًا كما تحدث فيها عن متناقضات الفن ومشكلات تعدد الفنون وأنواع الفنون الجميلة.

3) **مشكلة الحب:**

وعرض فيه لمشكلة من أطرف المشكلات الفلسفية التي لاقت صدى واسعًا لدى جمهور المتلقين والمثقفين وهي مشكلة الحب، وقد صدر الكتاب بمقدمة أوضح فيها على عكس ما هو شائع أننا نعيش عصر الحب. ثم بدأ في استعراض جوانب المشكلة عبر أربعة أبواب تضمنت اثنى عشر فصلاً، تحدث في الباب الأول عن أشباه الحب (حب الذات - الشفقة - التعاطف) وفي الباب الثاني تحدث عن أشكال الحب (الأمومة - الإخوة - العبادة)، وفي الثالث تحدث عن أنماط الحب (ايروس أو العشق - أجابيه أو المحبة - فيليا أو الصداقة)، أما الباب الرابع والأخير فقد خصصه للحديث عن أطوار الحب (مولد الحب - حياة الحب - موت الحب) وقد اختتم الكتاب بخاتمة لخص فيها رؤيته عن الحب باعتباره صورة معقدة من صور الوصال البشري. ثم بتزييل عن فلسفة الحب عند ابن حزم.

4) المشكلة الخلقية:

وهو كتاب رائد في استعراض جوانب المشكلة الخلقية بدأ بمقدمة هامة عن الإنسان باعتباره حيوانًا أخلاقيًا، ثم عرض لجوانب المشكلة في حوالي ثلاثمائة وعشرين صفحة عبر أربعة أبواب؛ تناول في الباب الأول ما أطلق عليه «متناقضات أخلاقية» وقد قسمه إلى أربعة فصول تحدث في الأول عن الأخلاق بين النظر والعمل، وتحدث في الثاني عن الأخلاق بين النسبية والإطلاق، وفي الثالث عن الأخلاق والفرد والمجتمع، وفي الرابع عن الأخلاق بين الاتباع والإبداع. أما الباب الثاني فقد خصصه لعرض النظريات الأخلاقية وخص منها ثلاثة نظريات عرضها في ثلاثة فصول متوالية هي: نظرية السعادة، نظرية المنفعة، نظرية الواجب. أما الباب الثالث فقد خصصه لتحليل الخبرات الخلقية وتحدث فيه عن أربعة خبرات عبر أربعة فصول هي خبرة الشر، خبرة الألم، خبرةالأمل، خبرة الحب، وقد اختتمه بخاتمة تحدث فيها عن أهمية المشكلات الخلقية ولخص رأيه في جوانبها المختلفة.

5) مشكلة البنية:

وهو الكتاب الثامن في سلسلة المشكلات وقد نشر عقب وفاته، وكان أول ما كتب في اللغة العربية عن الفلسفة البنيوية في ميادينها المختلفة، وقد بدأ مؤلفه بفصل عن معنى البنية ثم استعرض عبر خمسة فصول البنية في ميدان اللسانيات تحت عنوان البنيوية اللغوية، والبنية في ميدان الانثروبولوجيا تحت عنوان البنيوية الأنثروبولوجية، والبنية في ميدان الابستمولوجيا وتاريخ الثقافة تحت عنوان البنيوية الثقافية، والبنية في ميدان التحليل النفسي تحت عنوان البنيوية السيكولوجية، وأخيرًا البنية في ميدان الماركسية تحت عنوان البنيوية الماركسية.

6) كانت أو الفلسفة النقدية:

وقد كان من أوائل ما صدر عن هذا الفيلسوف الألماني الكبير في اللغة العربية. وقد استعرض فيه المؤلف مختلف جوانب فلسفة كانت النقدية بعد أن استعرض حياته وتطوره الفكري. وقد جاء في حوالي ثلاثمائة وخمسية صفحة من القطع المتوسط.

7) برجسون:

وقد صدر ضمن سلسلة نوابغ الفكر الغربي تحت رقم 3. وقد اتبع فيه نهج هذه السلسلة حيث عرف بالفيلسوف وبمذهبه الفلسفي وبمؤلفاته ثم قدم مجموعة من نصوصه المختارة. وجاء الكتاب في ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط.

8) فلسفة الفن في الفكر المعاصر:

وكان أيضًا أول كتاب من نوعه يستعرض مذاهب فلاسفة الفن في الفكر الغربي والعربي المعاصر. فقد تحدث عبر ثلاثة عشر فصلاً عن أهم مذاهب الفلاسفة الغربيين في الفن، حيث تحدث عن مذاهب كل من: برجسون وكروتشه وسانتيانا وديوي وآلان ومالرو وميرلوبونتي وكامي وسارتر وهيدجر وكاسيرر وسوزان لانجر وهربرت ريد. ثم تحدث في الخاتمة عن المقارنة بين فلسفة الفن وعلم الجمال عند سوريو وبايير. واختتم الكتاب بدراسة مطولة عن فلسفة الفن في الفكر العربي المعاصر تناول فيه مذاهب كل من: عباس العقاد وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات وزكي نجيب محمود.

9) دراسات في الفلسفة المعاصرة:

وهو كتاب خطط له صاحبه أن يكون أشمل دراسة عن المذاهب الفلسفية المعاصرة، فهو رغم تواضع عنوانه «دراسات» إلا أنه جاء في مضمونه أقرب الكتب إلى الكمال في التأريخ للفلسفة المعاصرة، فقد جاء الجزء الأول الذي أصدره المؤلف عام 1968م في حوالي ستمائة صفحة أرخ فيها لأكبر ثمان تيارات في الفلسفة المعاصرة عبر ثمانية أبواب هي الفلسفة البراجماتية، والفلسفة المثالية الجديدة، والفلسفة الواقعية المحدثة، والفلسفة التحليلية، والفلسفة الوضعية المنطقية، والفلسفة الفيومينولوجية، والفلسفة الأنطولوجية (هيدجر وياسبرز)، واختتمه بالحديث عن الفلسفة الوجودية (سارتر وميرلوبنتي). وقد وعد بجزء ثان لكن لم ير النور.

10) الأخلاق والمجتمع:

وهو كتاب ثقافي عام كتبه لسلسة المكتبة الثقافية في مائة وتسع عشرة صفحة من القطع

الصغير عرض فيه للنظريات الوصفية في معالجة الظواهر الخلقية على نحو ما ظهرت في المدرسة الاجتماعية الفرنسية. وقد حلل في ثناياه آراء دور كايم وليفي بريل في الأخلاق وعلم العادات.

11) **ابن حزم الأندلسي:**

وهو أيضًا كتاب ثقافي عام كتبه لسلسلة أعلام العرب في مائتي واثنين وسبعين صفحة من القطع المتوسط، وقد تناول فيه سيرة ابن حزم وانتاجه الفكري وشخصيته ثم عرض لمختلف النواحي في فكره المنطقية منها والجدلية والكلامية والفقهية والتاريخية. وعرض كذلك لموقف ابن حزم كعالم نفس، وحلل كتابه طوق الحمامة وقارن بين آرائه وبين آراء بعض المحدثين في دراسة مشكلة الحب.

وأعتقد أن عرضنا لمضمون هذه الكتب بالذات تكفي للدلالة على عمق وتنوع ثقافة زكريا إبراهيم الفلسفية وسعة أفقه التي مكنته وهو المفكر المسيحي المؤمن أن يتعرض لدراسة جوانب الثقافة الإسلامية و يتحدث عن اثنين من أهم مفكريها: ابن حزم وأبو حيان التوحيدي.

رابعاً: آراؤه الفلسفية

كان زكريا إبراهيم أميل إلى الإيمان في الفلسفة بنوع من الوجودية المؤمنة، وبدا ذلك من خلال حرصه على تحليل خبرات الفرد الحياتية المعاشة سواء في معالجته لمشكلات الحرية والإنسان والحب أو فيما كتبه عن الوجودية في كتابيه عنها أو في الفصول المتعددة التي كتبها عن هذه الفلسفة وعن أعلامها في مؤلفاته المختلفة في الفلسفة المعاصرة وتاريخها؛ ففي كتابه عن «مشكلة الحرية» تعرض لدراسة الحرية الأخلاقية وتحدث عن صور الحرية المختلفة وتبين علاقة الفكر بالإرادة، كما عني أيضًا بدراسة مشكلة الشر في ثنايا كتابه «مشكلة الإنسان»، كما حرص على دراسة بعض الفضائل الأخلاقية الحياتية كالمحبة والغيرة والتعاطف، والأمومة والإخوة، والعشق والصداقة في كتابه «مشكلة الحب».

وقد بدا هذا المنحى الوجودي المؤمن في دراسته الرائدة للمشكلة الخلقية؛ حيث عاب على معاصريه من الفلاسفة الغربيين على وجه الخصوص وعلى أتباعهم من العرب اهتمامهم

بقضايا الاقتصاد واللغة و إهمالهم لقضايا الأخلاق، إذ يستحيل في رأيه أن تقضي هذه التحليلات الاقتصادية أو اللغو ية على المشـكلات الخلقية التي يتعرض لها الإنسـان؛ «فالمشـكلة الخلقية إشـكال حي يعيشـه موجود تاريخي لا يكاد يكف عن التساؤل: ما الذي ينبغي لي أن أعمله؟! فليس باستطاعة الأبحاث المنطقية التي يجريها هؤلاء الفلاسفة على لغة الأخلاق أن تقضي بجرة قلـم على المشـكلة الخلقية التقليدية بكل ما تنطوي عليه مـن جدية وخطورة وقلق وجودي». (المشكلة الخلقية: ص9).

وهو يعزو عدم الاهتمام بالمشكلة الخلقية للإنسان إلى شيوع ظاهرة «التهرب من الذات»، تلـك الظاهـرة التي حدت بالكثير ين إلى إسـقاط المشـكلة الخلقية من حسـابهم الخاص نظرًا لسـيطرة الحياة الآلية على الإنسـان وقضائها على حياته الباطنية، تلك الحياة الآلية التي جعلت من الإنسان المعاصر إنسانًا خاويًا وحولته إلى مجرد « سلعة « كما حولت العلاقات الاجتماعية أيضًا إلى مجرد علاقات خاضعة لقوى السـوق. لقد اصطنع المجتمع الجديد أساليب استهلاكية جديدة للقضاء على شـعور الفرد بالعزلة والخواء، لكنها زادته شـعورًا بالغربة والخواء نتيجة تحو يلها الموضوعات الروحية نفسها إلى مجرد مضوعات للمبادلة والاستهلاك.

من هذا التحليل الوجودي للإنسان المعاصر الذي يعيش عصر سادته الآلة وقيم الاستهلاك وزاد فيه شـعور المرء بالغربة والخواء، من هذا التحليل ينطلق زكر يا إبراهيم إلى التأكيد على أهميـة العودة إلى دراسـة الموضوعات الخلقيـة و إيقاظ الوعي الخلقي لدى هذا الإنسـان حتى يعود إليه الشعور بالأمن والطمأنينة وتصبح حياته ذات هدف وقيمة.

إن «الأخلاق الفلسـفية» في نظره «لا تر يد أن تحتبس الإنسـان داخـل بعض الصيغ الميتة الجامـدة بل هـي تر يد له أن يتقدم باسـتمرار نحو المزيد من الحر ية والمسـئولية والقدرة على توجيه الذات. وليس من شـك في أن تحر ير الإنسـان من كل وصاية إنما هي بمثابة خلق جديد للإنسـان. ولكن «التفكير الأخلاقي» وحده هو الكفيل بتحر ير الإنسان والسمو به إلى مرتبة «الشر يك» الحقيقي لله في عملية «ابداع الكون». (ص14).

و إذا كانت الأخلاق الفلسـفية هي التي تجعل من الإنسـان على هذا النحو شر يكًا لله في عملية إبداع الكون وتجعل منه كائنًا واعيًا خلاقًا مبدعًا يشعر بقيمة وجوده وبأهميته القصوى

في الوجـود، فـإن «العمي الخلقي» وحده - هو الذي يغلق أعيننا عن رؤية ما في الواقع من ثراء ومعنى وقيمة». (ص15).

ومن ثم فإن فيلسـوف الأخـلاق عليه مهمة إيقاظ الوعي الأخلاقـي لدى البشر، أو بمعنى آخر «لابد لفيلسـوف الأخلاق - على حد تعبير مفكرنا - من أن يأخذ على عاتقه مهمة «إعادة البصر» أو «البصيرة» إلى أولئك الذين لم يعودوا يدركون «القيم». (ص15).

و إذا قام الفيلسوف بواجبه هذا؛ فإن الإنسان سيعي حتمًا أن كلا من الخير والشر لا يمثل مجـرد واقعة آلية أو ظاهرة أتوماتيكية بل هـو أولاً وقبل كل شيء ثمرة لجهد إرادي أو اختياري خلقي؛ إذ ليس يكفي القول أن الإنسـان هو عين ما يعمل بل يجب أن نضيف إلى ذلك حسـبما يقول زكريا إبراهيم «أن الإنسان هو ما يخلق من نفسه وأنه في الوقت نفسه ما يهدف إليه مع ذلك وما يريد أن يكون عليه. وقد يكون الموت حقيقة أليمة بالنسبة للإنسان، ولكن هناك مع ذلك فكرة أقسى على الإنسان من فكرة الموت، وتلك هي أن يموت قبل أن يكون قد استطاع أن يحيا بالفعل ولاشك أن الأخلاق بوصفها «فن الحياة» إنما هي التي تأخذ بيدنا على درب الحياة كي تعلمنا كيف نحيا». (ص305).

و إذا كان زكريا إبراهيم يقول في خاتمة «المشـكلة الخلقيـة» أنه لم يقصد في ثنايا تحليله للمشكلة الخلقية من واقع الخبرة المعاشرة أن يقدم «أخلاقًا وجودية». (ص305)، فإننا نرى أنه صاحـب رؤية وجودية مؤمنـة في كل ما كتب وليس فقط في المشـكلة الخلقية! و إلا فكيف نفهم قوله مثلاً في «مشـكلة الحب»: «ليس الحب في شـتى أشـكاله مجرد متعة جنسية أو مجرد رغبة في إنجاب النسل، ـ بل هو أولاً وبالذات خروج من عزلتنا الأليمة وتحطيم لقوقعة الذاتية، وانتصار على الأنانية». (ص309). أو قوله «أن القيمة الأخلاقية للحب هي أنه يعلمنا ألا نعامل الآخريـن معاملة الأشـياء أو الموضوعات أو الوسـائط، بل معاملة الأشـخاص أو الذوات أو الغايـات». (ص311). أو قولـه في إهداء هذا الكتاب «أن الحب هـو القيمة الكبرى التي تخلع على سائر القيم كل مالها من قيمة، وأنه صرخة قلب نابض بالحب إلى قلب آخر نابض بالحب» (ص5). أو قولـه في ختام كتاب «مشـكلة الفن» أن الفنان الحقيقي إنمـا هو ذلك الصانع الذي يـزدري المادة ولا يحتقر الصنعة، بل يخلص دائمًا للفن بوصفه مهنة، و يؤدي رسـالته في المجتمع بوصفـه صاحب حرفـة يعيش منها ولكنه يعيش لهـا أيضًا! وليس الصدق في الفن سـوى وفاء

الفنان لرسالته بوصفها ذلك النشاط الإبداعي الذي لا يبدأ إلا من حيث تنتهي الحرفة!.. إن الفن في جوهره فعل أو فلسفة فعل أعني أنه نشاط ظافر منتصر يشارك فيه المتأمل فيشعر بغبطة النجاح أو نشوة الانتصار» (ص257).

أعود لأقول: كيف نفهم كل هذه الأقوال وغيرها إن لم يكن صاحبها معبر عن فلسفة وجودية مغلفة بذلك الغلاف الرقيق من الإيمان المسيحي بالحب والخير الجمال؟!

كيف لا يكون وجوديًا من قال في «مشكلة الحرية»: «أن وجود الإنسان ينحصر في حريته» (ص270)، وأن «الوجود الإنساني إن هو إلا وجود (حرية) تضع نفسها موضع التساؤل» (ص9).

أهم المصادر والمراجع

ملف خدمة زكريا السيد إبراهيم بقطر بأرشيف كلية الآداب - جامعة القاهرة.

د. زكريا إبراهيم:

- مشكلةالحرية، مكتبة مصر بالقاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- المشكلة الخلقية، مكتبة مصر بالقاهرة، الطبعة الثانية 1980م.
- مشكلةالحب، مكتبة مصر بالقاهرة، الطبعة الثانية 1970م.
- مشكلة الفن، مكتبة مصر بالقاهرة، بدون تاريخ.
- كانت أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر بالقاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- فلسفة الفن في الفكر المعاصر، مكتبة مصر بالقاهرة، بدون تاريخ.
- دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر بالقاهرة، الطبعة الأولى 1968م.
- مشكلة البنية، مكتبة مصر بالقاهرة، بدون تاريخ.
- الأخلاق والمجتمع، المكتبة الثقافية (152)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966م.
- ابن حزم.. المفكر الظاهري الموسوعي، سلسلة أعلام العرب (56)، القاهرة 1966م.